من روائع القرآن
فى آيات الإحسان

دكتور
بغدادى إبراهيم الصحابى
مدرس البلاغة والنقد
بكلية اللغة العربية بجرجا — جامعة الأزهر

مقـــــدمة

الحمد لله الذى جعلنا من أهل القرآن ، ومن اتباع أمير البيان سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأذكى السلام •

وبعـــــد •••

فإن الموضوعات التى تناولها القرآن موضوعات كثيرة وجـديرة بالدراسة والبحث والتتبع والملاحظة فإن الموضوعات التى تناولها هى الغاية من نزوله على سيد الخلق ، وهى الهـدف الأسـمى من قراءته وتدبره وتكرار النظر فيـه •

وما كانت الأسرار البلاغية القيمة والتى فاقت الوصف والحصر إلا خدما ووسيلة للوصول إلى تلك الموضوعات ومعرفتها والعيش فى رحابها والإقتناع بها والعمل بمقتضاها •

واخترت من بين هـذه الموضوعات موضـوع « الإحسـان » وركزت فى هـذه الدراسة على فئات وأصناف من الناس أمر القرآن بالإحسان إليهم نظرا لضعفهم ، وحاجتهم وعجزهم •

وقرأت تلك الآيات التى اهتمت بهذه الطوائف وحاولت معايشـة ما فيها من أسرار وعظات وعبر ، وحاولت إبراز الجانب البلاغى قـد استطاعتى لأصل من خلال ذلك إلى أهمية الوقوف عند الأسرار البلاغية بمعرفة قوتها وفضلها فى إبراز تلك الموضوعات وبيان شـــدة الحاجة إليها ، وكيف استطاع القرآن بأسلوبه الأخاذ وعباراته الشيقة أن يصل

إلى أعماق القلوب ، ويغير من عادات ألفتهـا وصـفات اكتسبتها فى جاهليتهـا .

وتغيير العادة أمر ليس باليسير ولا الهين لذلك يحتاج ممن يريد التعبير أن يعمد إلى الوسائل من مرغبات ومغريات ، وتكرار وإلحاح ، حتى تبغض إلى النفوس تلك العادات ، وتحل محلها عادات حسنة تؤلف بين أفراد المجتمع وتؤدى إلى قوته وتماسكه وإزالة الفوارق التى تولد الأحقاد والأضغان .

واخترت عدة فئات جعلتها موضوعا لهذا البحث منها :

١ – الإحسان للوالدين .

٢ – الإحسان لذوى القربى .

٣ – الإحسان لليتامى .

٤ – الإحسان للمساكين .

٥ – الإحسان للجـار .

وهؤلاء هم أصـحاب الحقوق ، والضـعفاء الذين أمر القرآن بالإحسان إليهم ورغب فى ذلك ببيان الثواب الجزيل ، والأجر الكبير ، وحذر وأنذر وتوعد من يظلمهم ، أو يجور عليهم ، أو يقصر فى برهم بالعاقبة والمصير المشئوم .

واستعنت على ذلك بكتب التفسير التى تهتـم بالأسرار البلاغية وتركز عليها مثل تفسير أبى السعود ، ومفاتيح الغيب والتحرير والتنوير وغرائب القرآن للنيسابورى ، وغيرها .

ثم طلبت العون من الكبير المتعال – سبحانه – فى إنجاز هـذا العمل وإكماله .

والله أسأل أن يكون التوفيق حليفى وأن يكون هـذا العمل خالصا لوجهه الكريم .

« سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » .

الإحسان للوالدين

إن الإسلام قد اهتم بالوالدين غاية الاهتمام لما لهما من دور فعال فى بناء المجتمع والنهوض به إلى أعلى الرتب فمنهما ينبثق العطاء، ويزداد النماء، فهما العجلة المحركة لدولاب الحياة، وبصماتهما ظاهرة فى كل مناحى الحياة سواء أكانت عملا أو سلوكا، أو عقيدة .

ولذلك يوصى القرآن الكريم فى كثير من آياته معاشر الأبناء بالإحسان إليهما والحرص على برهما، والتفانى فى مرضاتهما، ويجعل الإسلام ذلك ضربا من العبادة ونوعا من النسك، حيث يعفى الابن عن الجهاد فى سبيل الله إذا كان أحد والديه أو كلاهما يحتاج إلى رعاية وعناية وتمريض وغير ذلك واعتبر ذلك جهادا كما قال النبى — ﷺ — للإبن الذى يحرص على قتال الأعداء، إذهب ففيهما فجاهد، يعنى والديه .

ومن مظاهر التكريم والعناية والاهتمام، مواقع الأمر بالإحسان، حيث فى جل الآيات جاء ذلك تلو الأمر بعبادة الله .

والوالدان تثنية والد، والمراد بهما الأب والأم والعلة فى الاستعمال العربى حيث غلبوا عند التثنية الوالد على الوالدة، ولعل السبب فى ذلك لما يحمله الإبن من الانتساب إلى الأب، ومعرفته ومناداته به .

ومن المواقع التى جاء فيها الأمر بالإحسان إلى الوالدين ذلك الميثاق الذى أخذه الله على بنى إسرائيل فى قوله :

« وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون »(١) .

عظات وعبر يسوقها المولى لأمه سيدنا محمد — ﷺ — وذلك فيما هو مشترك بينهم وبين الأمم السابقة، فبنو إسرائيل أمة من الأمم قد أخذ الله عليهم الميثاق وهو الأدلة العقلية والشرعية بواسطة الرسل، والميثاق لا يكون إلا بالقول « كأنه قال : أمرناهم ووصيناهم، وأكدنا عليهم، وقلنا لهم : لا تعبدون إلا الله »(٢) .

وبين أبو السعود بلاغة القرآن فى إثارة الإخبار والمراد به النهى على النهى لأنه أبلغ فى بيان المطلوب حيث قال عند تفسير قوله « لا تعبدون إلا الله » على إرادة القول أى : قلنا أو قائلين « لا تعبدون » وهو إخبار فى معنى النهى، كقوله تعالى : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » وكما تقول تذهب إلى فلان وتقول كيت وكيت، وهو أبلغ من صريح النهى لما فيه من إيهام أن المنهى حقه أن يسارع إلى الإنتهاء عما نهى عنه، فكأنه انتهى عنه فيخبر به الناهى ويؤيده قراءة « لا تعبدوا »(٣) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٣ .
(٢) مجمع البيان جـ ١ ص ٢٩٨ .
(٣) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٢٣ .

ووجوه الإحسان كثيرة ومتعددة ، لذلك عبر به دون فرد من أفراده حتى لا يخرج وجها من وجوهه ، « والإحسان » هو ما فرض على أمتنا من فعل المعروف بهما ، والقول الجميل وخفض جناح الذل لهما ، والتحنن عليهما ، والرأفة بهما والدعاء بالخير لهما وما أشبه ذلك(٤) وقد دلت الآية على الحث ببر الوالدين وإكرامهما ، والآيات والأحاديث فى ذلك كثيرة وناهك احتفالا بهما أن الله عز اسمه قرن ذلك بعبادته(٥) .

ونرى النظم الكريم فى غاية الدقة والإبداع حيث أظهر الحفاوة البالغة بالوالدين ، ويكاد السياق الكريم أن ينطق ويفصح بهذا المعنى ويدل عليه .

ومن ذلك ذكر الوصية بالإحسان إليهما بعد الأمر بعبادة الله والنهى عن عبادة غيره ، ودلالة الترتيب تشير إلى هذه المنزلة والمكانة ، فشىء يؤمر به بعد الأمر بعبادة الله لا ريب أنه مهم وجد خطير .

وقد ذكر صاحب مفاتيح الغيب عللا كثيرة دعت إلى هذا الإرداف حيث يقول « إنما أردف عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين لوجوه :

أحدها : أن نعمة الله على العبد أعظم النعم فلابد من تقديم شكره على شكر غيره ، ثم بعد نعمة الله فنعمة الوالدين أعم النعم ، وذلك لأن الوالدين هما الأصل ، فى كون الولد ووجوده ، كما أنهما منعمان عليه

---

(٤) مجمع البيان ج ١ ص ٢٩٨ .
(٥) روح المعانى ج ١ ص ٣٠٨ .

بالتربية وأما غير الوالدين فلا يصدر عنه الانعام بأصل الوجود ولا بالتربية فقط فثبت أن إنعامها أعظم وجوه الإنعام بعد إنعام الله — تعالى — .

ثانيها : أن الله هو المؤثر فى وجود الإنسان فى الحقيقة والوالدان هما المؤثران فى وجوده بحسب العرف الظاهر ، فلما ذكر المؤثر الحقيقى أردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر .

ثالثهما : أن الله لا يطلب بإنعامه على العبد عوضا البتة بل إنما المقصود هو محض الإنعام ، والوالدان كذلك فانهما لا يطلبان على الإنعام على الولد عوضا ماليا ولا ثوابا ، فمن هذا الوجه أشبه إنعامها إنعام الله — تعالى — .

رابعها : أن الله — تعالى — لا يمل من الإنعام على العبد ولو أتى بأعظم الجرائم فإنه لا يقطع عنه مواد وروادف كرمه ، وكذا الوالدان لا يملان الولد ولا يقطعان عنه مواد منحهما وكرمهما وإن كان الولد مسيئا إلى الوالدين .

خامسها : كما أن الولد المشفق يتصرف فى مال ولده بالإسترباح ، وطلب الزيادة ويصونه عن البخس والنقصان .

فكذا الحق — سبحانه وتعالى — متصرف فى طاعة العبد فيصونها عن الضياع ، ثم إنه سبحانه يجعل أعماله التى لا تبقى كالشىء الباقى أبد الآباد ، كما قال تعالى :

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » سورة البقرة ٢٦١ .

سادسها : أن نعمة الله وإن كانت أعظم من نعمة الوالدين ولكن نعمة الله معلومة بالاستدلال ، ونعمة الوالدين معلومة بالضرورة إلى أنها قليلة بالنسبة إلى نعمة الله فاعتدلا من هذه الجهة والرجحان لنعم الله فلا جرم جعلنا نعم الوالدين كالتالية لنعم الله — تعالى —(٦) .

ومن خصائص النظم الكريم الإيجاز بالحذف والذى فهم من بداية الآية والتقدير : أذكر إذ « أخذنا ميثاق بنى إسرائيل » حتى يكون فى ذلك موطنا العظة والعبرة لأبناء أمة محمد — ﷺ — .

وضمير الجمع المشعر بالعظمة والغلبة والقدرة كل هذه الأمور يتطلبها أخذ الميثاق ، والتعبير به أبلغ من الأمر والنهى المجرد ففيه تأكيد لأهمية ما يأتى بعده من أوامر ونواهى ، وتحذير من مغبة المخالفة والتقاعس والتكاسل عن مراد الله .

وفى إضافة بنى إلى إسرائيل ، وهو يعقوب حث لهم على وجوب الاتباع والامتثال .

وفى أسلوب القصر فى قوله « لا تعبدون إلا الله ما يدل على تأكيد الأمر ، ويفهم منه الأمر بطاعة الله ، وعدم الشرك .

وجمع الوالدين فى لفظ واحد أفاد الإيجاز من وجه وأفاد الإشعار بالوصف الحامل على الإحسان ، وهو الولادة ، وما يترتب عليها من تربية ورعاية وصبر على ذلك .

ومن الآيات التى جاء فيها الأمر بالإحسان إلى الوالدين قوله

---

(٦) مفاتيح الغيب ج ٣ ص ٢٢٧ — ٢٢٨

تعالى « وأعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا »(٧) .

ثمت فرق بين السياق هنا وهناك حيث صدرت تلك الآية بأخذ الميثاق ، وأسلوب القصر ، ودل ذلك على تأكيد الأمر وأهميته فالمخاطبون هم بنو إسرائيل وأعراضهم وتخاذلهم وتكاسلهم أمور ظاهرة جعلت السياق يزخر بهذا القدر من التأكيد أما هنا فالمخاطبون هم المؤمنون ولا ريب فى إيمانهم وعدم شركهم لذلك بدأت الآية بالأمر بعبادة الله ثم النهى عن الشرك طلبا للاستمرار والتمسك بالأول ، والتحذير والتخويف من الثانى .

وقد فطن صاحب التحرير والتنوير إلى هذا المعنى حيث قال « والخطاب للمؤمنين » ولذلك قدم الأمر بالعبادة على النهى عن الأشراك لأنهم قد تقرر نفى الشرك بينهم ، وأريد منهم دوام العبادة لله والاستزادة منها ، ونهو عن الشرك تحذيرا مما كانوا عليه فى الجاهلية ومجموع الجملتين فى قوة صيغة حصر ، إذ مفاده أعبدوا الله ولا تعبدوا غيره ، فاشتمل على إثبات ونفى ، كأنه قيل لا تعبدوا إلا الله ، ... وبنوا إسرائيل لما خوطبوا بنظير هذه الآية خوطبوا بطريقة القصر فى قوله : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدوا إلا الله وبالوالدين إحسانا » . الآية لأن المقصود من الأول إيقاظهم إلى ابطال عبادة غير الله لأنهم قالوا لموسى « إجعل لنا إلها كما لهم آلهة » ، ولأنهم عبدوا

---

(٧) سورة النساء الآية ٣٦ .

العجل فى مدة مناجاة موسى ، فأخذ عليهم الميثاق بالنهى عن عبادة غير الله(٨) .

وهكذا نتباين سياقات القرآن من مقام إلى مقام وهذا التباين منشؤه رعاية الحالة التى يتحدث عنها ورعاية من يتحدث لهم أو عنهم .

فالآية بدأت بالأمر المستعمل فى حقيقته حيث توجه به رب العالمين لكافة المؤمنين بأن يداوموا ويحافظوا على عبادة الله وحده والتوجه بالخطاب وما يشتمل عليه من خصائص مثل الاهتمام ، والقرب بعدم وجود الوسطاء ، ولفظ الجلالة الذى يزرع المهابة فى قلوب السامعين فيدعوهم ذلك إلى الامتثال والالتزام .

وجاءت الواو لتكون واصله بين الجملتين لاتفاقهما فى الإنشائية ، حيث جاءت الثانية ناهية عن الشرك نهيا حقيقيا ليدل ذلك على أن العبادة لله ولو صحبها الشرك فإنها لا تفلح ولا تنفع صاحبها .

ويأتى الإطلاق والشمول والإحاطة فى النهى عن الشرك والمفهومة من كلمة شىء ، تنكيرها ، فهو نهى عن إشراك المادة ، أو الحيوان ، أو الإنسان ، أو الملك ، أو الشيطان وكل هذه الأمور داخلة فى مدلول كلمة شىء وغيرها من الأمور التى سوف تحدث بتقدم الزمن واختلاف الأقوام من ألوان الشرك التى لم تكن معهودة فى الماضى ولم نعهدها فى حاضرنا .

ويأتى التخصيص المتفرع كثمرة حتمية من ثمار عبادة الله ، وعدم الشرك فمن عبد الله أطاعه ومن طاعته الإحسان إلى الوالدين .

---

(٨) التحرير والتنوير جـ ٥ ص ٤٨ .

والإيجاز الملحوظ من حذف الفعل ودلالة المصدر المؤكد على لفظ الفعل ، وتأكيده له ليفهم المخاطب مدى أهمية الإحسان إلى الوالدين من خلال التراكيب المعبرة بعد الترتيب المقصود .

وقوله تعالى « قل تعالوا أتلوا ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون »(٩) .

وهذا سياق ثالث وقع فيه الأمر بالإحسان إلى الوالدين ضمن أمور محرمة طلب الله من رسوله — ﷺ — أن يتلوها على معاشر المشركين ، والأمر بالإحسان إليهما من المحرمات ، وإنما المحرم ضده وهو الإساءة إليهما .

وصدرت الآية بالفعل قل خطابا لرسوله — ﷺ — لأن هذا مقام من مقامات التعليم الذى بين فيه بعض المحرمات .

وفعل تعالوا ، من التعالى واستعمل لأن الطالب كان يعلو على ربوة عالية ثم ينادى على من يطلبه ثم توسع فيه فأصبح يستعمل فى طلب المجىء مجازا « فهو مجاز شائع صار حقيقة عرفية »(١٠) وهو يدل على دقة التعليم حتى أنه يشمل صيغة البيان التى تكون بها الأحكام . والأمر فى قوله « تعالوا » مستعمل فى حقيقته ، وجواب قوله « أتلوا » .

---

(٩) سورة الأنعام ١٥١ .

(١٠) التحرير والتنوير جـ ٥ ص ١٥٧ .

والتعبير بالموصول فى قوله « ما حرم » لتعميم الأمر وإجماله حتى تكون النفس فى ترقب وانتظار لهذا البيان والتفصيل الذى سيذكر بعد ذلك ، وهذا أبلغ من ذكر التفصيل إبتداءا ، والتعرض لعنوان الربوبية مع إضافته إلى ضميرهم لبيان إيجاب الإعتناء بالمحرمات التى ستذكر بعد ذلك .

وجاءت « أن » التفسيرية فى قوله (أن لا تشركوا به شيئا) لذلك تم الفصل بين هذه الجملة وبين ما قبلها لأن هذه بمثابة عطف البيان لسابقتها .

ونلاحظ هنا عدم وجود الأمر بالعبادة كما فى الآيتين السابقتين لأنه لا تتصور عبادة مع وجود الشرك والتخلية مقدمة على التحلية ، وقوله « شيئا » وتنكيره لإفادة العموم أى « لا تشركوا به شيئا » كائنا ما كان .

ووقع هذا الأمر بالإحسان إلى الوالدين والمراد به ضده لأنه عطف على أمر منهى عنه « وإنما عدل عن النهى عن الإساءة إلى الأمر بالإحسان إعتناء بالوالدين لأن الله أراد برهما ، والبر إحسان ، والأمر به يتضمن النهى عن الإساءة إليهما بطريق فحوى الخطاب ، وقد كان كثير من العرب فى جاهليتهم أهل جلافة ، فكان الأولاد يوقرون آباءهم إذا أضعفهم الكبر ، فلذلك كثرت وصايا القرآن بالإحسان بالوالدين (١١) .

ثم عطف على ذلك النهى عن قتل الأولاد خشية الفقر والعلة حتى

---

(١١) التحرير والتنوير جـ ٨ ص ١٥٨ .

لا يكون القتل سببا فى العقوق وعدم الإحسان وقدم رزق الآباء على الأبناء لأن الفقر موجود ، وفى آية أخرى قدم رزق الأبناء على الآباء لأنهم أغنياء ويخشون الفقر بمجيء الأولاد لذلك قال هناك « خشية إملاق » .

ونرى بعد ذلك النهى عن القرب من الفواحش وهو أبلغ من النهى عن الإقتراف « لأن القرب من الشيء مظنة الوقوع فيه ، ولما لم يكن للإثم قرب ولا بعد كان القرب مرادا به الكناية » ، ثم نهى عن قتل النفس مطلقا ثم ختم المحرمات بالإشارة الدالة إلى الإيجاز ، ثم التذييل بالوصية المذكرة بما اشتملت عليه الآية من المحرمات .

وقوله تعالى « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربى ارحمهما كما ربيانى صغيرا » (١٢) .

وهذا السياق يباين السياقات الماضية فهنا نرى الأمر قد جاء بصيغة مختلفة حيث صدر بقوله « وقضى » والقضاء يفهم منه الأمر المفهوم فى تلك السياقات ويضاف إليه الإلزام المفهوم من مادة الكلمة ، والذى دعا لهذه الزيادة الخطاب الموجه للمؤمنين فالمؤمن ملزم بالأمر الوارد من الشارع .

وجاء الخطاب فى قوله « ربك » المفرد والمراد به الجمع لأنه أبلغ فى الإلزام والطلب حيث كل من يقرأ الآية الكريمة يتصور أنه مخصوص

---

(١٢) سورة الاسراء الآيتان ٢٣ _ ٢٤ .

بهذه الأمور التى جاءت فى سياق الأمر ، لذلك ترجح كون الخطاب يشمل كل مخاطب عن كونه للنبى — ﷺ — .

وإسناد القضاء إلى وصف الربوبية فيه حمل على الامتثال فمن ثبتت له الربوبية وجبت له الطاعة والعبادة وإضافة الرب إلى ضمير المخاطب فيه دلالة على شمول ربوبيته للكل وتجديد وتذكير بها .

وقد فطن صاحب التحرير والتنوير — إلى الإختلاف فى افتتاح آية الأنعام وهذه الآية حيث قال « فمن الاختلاف بين الأسلوبين أن هذه الآية افتتحت بفعل القضاء المقتضى الإلزام وهو مناسب لخطاب أمة تمتثل أمر ربها ، وأفتتح خطاب سورة الأنعام بـ « تعالوا اتلوا ما حرم ربكم عليكم » .

ومنها : أن هذه الآية جعلت المقضى هو توحيد الله بالعبادة لأنه المناسب لحال المسلمين فحذرهم من عبادة غير الله وآية الأنعام جعلت المحرم فيها هو الإشراك بالله فى الإلهية المناسب لما كانوا عليه من الشرك إذ لا عبادة لهم(١٣) .

وبعد ما أمر بطاعته ونهى عن الشرك ثنى بطاعة الوالدين حيث أمر بالإحسان إليهما بأسلوب غاية فى البلاغة حيث قدم الجار والمجرور ليدل على الاهتمام بهما والمصدر المؤكد لفعله المحذوف اختصارا للعلم به من المصدر المذكور .

وانفرد السياق بتفاصيل يفهم منها التعليم لكيفية الإحسان ،

---

(١٣) التحرير والتنوير جـ ١٥ ص ٨٥ ـ ٨٦ .

وصور من العقوق ، وبيان للحالة التى يكون البر فيها أوجب وهى حالة الكبر وما يكتنفها من ضعف وعجز واحتياج .

وتصدر الجملة الناهية عن عقوقهما فى حالة الكبر بأسلوب الشرط الموحى بالتثنية والتوكيد « وتأكيد فعل الشرط بنون التوكيد لتحقيق الربط بين مضمون الجواب ومضمون الشرط فى الوجود »(١٤) والعندية فى قوله « عندك » يفهم منها أنهما فى كفالته وتحت رعايته ، وليس المفهوم منها قربه منهما فقد يكونان على بعد من الولد وهما فى حاجة فهو مطالب بالإحسان وعدم العقوق مادام فى استطاعته إيصال البر إليهما .

ونهى الله عن التأفيف لأنه أدنى مظاهر الغضب وما فوقه أشد حرمة وإن لم يكن بنص الآية فهو بالقياس ويسميه علماء الأصول بقياس الأولى حيث تحقق العلة فى المقيس أوضح وأقوى من المقيس عليه ، والضرر متحقق وظاهر فى الإساءة بالضرب أو الشتم مثلا .

والعلة فى قوله (أحدهما أو كلاهما) حتى لا يظن وجوب الإحسان إليهما وعدم العقوق فى حالة اجتماعهما فالعقوق محرم فى الحالين أو لأن البواعث على العقوق مختلفة فقد يكون اجتماع الوالدين هو الباعث على التبرم وعدم البر لما فيه مشقة وكلفة وقد ينفرد من لا يميل إليه .

وبعد ما نهى عن التأفيف وهو أقل ضرر يتصور ، عطف عليه النهى عن نهرهما بالزجر وهو كل ما يشعر بالخوف من قول ، أو فعل أو إشارة أو كان سببا فى التخويف ولو لم يباشره .

---

(١٤) التحرير والتنوير جـ ٢

ثم عطف بعد ذلك الأمر بالإحسان إليهما والذى من مظاهره التفانى فى إكرامهما إكراما عاما يشمل القول والفعل .

ثم ارتقى فى الوصاية بالوالدين إلى أمر الولد بالتواضع لهما تواضعا يبلغ حد الذل لهما لإزالة وحشة نفوسهما إن صارا فى حاجة إلى معونة الولد ، وصيغ التعبير عن التواضع بتصويره فى هيئة تزال الطائر عندما يعتريه خوف من طائر أشد منه إذ يخفض جناحه متزللا ففى التركيب استعارة مكنية والجناح تخييل بمنزلة تخيل الإظفار للمنية فى قول أبى ذؤيب :

وإذا المنية أنشبت اظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ومجموع هذه الاستعارة تمثيل والتعريف فى الرحمة عوض عن المضاف إليه ، أى من رحمتك إياهما .

و « من » ابتدائية ، أى الذل الناشىء عن الرحمة ، لا عن الخوف أو عن المداهنة ، والمقصود اعتياد النفس على التخلق بالرحمة باستحضار وجوب معاملته إياهما بها حتى يصير له خلقا(١٥) .

وتستمر الآيات فى تعليم الولد كيفية الإحسان والذى من مظاهره الدعاء لهما بالرحمة عند الكبر وفاء لما قدماه من تربية وقت الصغر .

ويصف الله طائفة من خلقه بأوصاف جعلتهم مناحا للتشريف والتكريم ، ومن أفضل الأوصاف وأكرمها البر بالوالدين ، ومن هؤلاء الخلق نبى الله يحيى — عليه السلام — فبعد ما بين الله فضله عليه —

(١٥) التحرير والتنوير جـ ١٥ ص ٧٠ : ٧١ .

بإيتاء الحكم وهو صبى وكان تفضلا من الله عليه ، ذكر اتصافه بصفة التقوى .

ثم عطف بروره بوالديه على كونه تقيا للدلالة على تمكنه من هذا الوصف ، والبرور : الاكرام والسعى فى الطاعة . والبر — بفتح الباء — وصف على وزن المصدر فالوصف به مبالغة . وأما البر — بكسر الباء — فهو اسم مصدر لعدم جريه على القياس(١٦) .

وفى مشهد آخر ضمن خارقة من خوارق العادات حيث مريم البتول عندما بشرت بعيسى وأتت إلى قومها بعد ما وضعته وكانت عذراء فتعجبوا من أمرها فما كان منها إلا أن أشارت إليه فتعجبوا وسخروا من صنيعها ، ويأتى الأمر الخارق لتخرس الألسنة وتطمئن القلوب وتثبت البراءة والعفة « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا »(١٧) .

وحتى هنا فى هذا الذى كان الحديث من صبى فى المهد نرى الترتيب العجيب الذى سبق فى السياقات الماضية حيث بدأ بعبوديته لله وكونه نبيا وكونه مباركا أينما حل ثم بذكر وصية الله — تعالى — له بالمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة . ثم عطف بره بوالدته .

وخصه الله — تعالى — بذلك بين قومه لأن بر الوالدين كان ضعيفا فى بنى إسرائيل يومئذ ، وبخاصة الوالدة لأنها تستضعف لأن

(١٦) التحرير والتنوير جـ ١٦ ص ٧٧ .
(١٧) سورة مريم الآيتان ٣١ — ٣٢ .

فرط حنانها وشفقتها قد يجرءان الولد على التساهل فى البر بها(١٨) .

ومن ضروب الفتنـــة : الفتنـــة بالأهل مثل الولد ، أو الزوجة أو الوالدين ، أو غير ذلك ، والوالدان لهما حقهما الواجب فى الطـــاعة والإحسان والبر والإكرام والعطف والتحنن ، ولكن الطاعة تتوقف إذا تجاوزت حدودها مثل أمرهما بالشرك للولد ، لأنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ولكن ليس معنى هـــذا أن تنقطع الصلة ويذوب الود ، فلا يكون الشرك أو الكفر سببا فى عدم الإحسان ، « ووصينا الإنسان بوالديه حســنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »(١٩) .

وبدأت الآية بالوصية وهـــذا أمر بالإحسان لكنـــه يختلف عن بقية الأوامر التى سبقت فهنا وصـــية تحمل معنى الأمر والذى يفهم منـــه التحريض لأن الوصية يفهم منها التحريض والسبب فى هـــذه الزيادة المضافة هنا أن المقام يتطلبها ، لأن تمسك الوالدين بالشرك ، ومجاهدة الولد لينصاع إلى ذلك مظنة جواز الإعراض عنهما وعـــدم الإحسان إليهما .

والتعبير بلفظ « الإنسان » وكونه معرفا بأل ليـــدل على العموم ولتشير إلى أن الإنسان أيا كان دينه ومهما كان إختلافه مع والديه فى أمر العقيدة ، أو بعض التشريعات فإن ذلك لا يكون حاملا أو مجوزا لعدم الإحسان ، حيث الانسانية تحتـــم الإحسان والمعروف ، ويأتى

(١٨) التحرير والتنوير ج ١٦ ص ١٠٠ .
(١٩) سورة العنكبوت الآية ٨ .

أسلوب الشرط ليشير إلى قلة ذلك وندرته إلا أنه لابد من بيان الحكم .

وروى فى سبب نزولها : أن سعدا حين أسلم قالت له أمه حمنة بنت أبى سفيان : يا سعد بلغنى أنك صبأت فوالله لا يظلنى سقف بيت ، وإن الطعام والشراب على حرام حتى تكفر بمحمد ، وبقيت على ذلك ثلاثة أيام ، فشكا سعد ذلك إلى رسول الله — ﷺ — فنزلت هذه الآية فأمره رسول الله — ﷺ — أن يداريها ويترضاها بالإحسان(٢٠) .

ولقمان الحكيم وهو يوصى ابنه بوصايا غالية يحق لكل ابن أن يعمل بها وأن يحرص على تطبيقها لأن فى ذلك غنم كثير وثواب جزيل .

ولكن السياق الكريم يسترعى الانتباه حيث بعد وصيته لابنه بعدم الشرك ترى القرآن ينتقل نقلة خفيفة ويقطع الوصية من لقمان ليتولى رب العالمين بنفسه جانبا من هـــذه الوصية ، وكأنما جاءت لتحث هـــذا الابن وغيره على إتباع وصايا الوالد والوالدة وخاصة إذا اتضح فيها النفع مثل هـــذه الوصايا .

« ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيـــا معروفا واتبع ســـبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »(٢١) .

ويسلك السياق هنا نفس المسلك الذى سلكه فى الآية السابقة حيث ترى الأمر بطاعة الوالدين المتضمن لمعنى التحريض ، إلا أن الموصى به

(٢٠) التحرير والتنوير ج ٢٠ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .
(٢١) سورة لقمان الآيتان ١٤ ـ ١٥ .

هنا حذف ليكون أشمل وأعم من الحسن ، والإحسان فيدخل فيه كل لون من ألوان البر والطاعة ، أو حذف لعلمه من السياقات السابقة .

وفجأة تدخل جملة اعتراضية تبين العلة من الإكثار فى الوصية بالوالدين ، فالوالدة تذوق التعب وتلقى العنت فى حملها ووضعها ونفاسها ، وتربيتها وغير ذلك ، وهو المعبر عنه بأبلغ لفظ وهو (الوهن) ثم يزيد النظم الكريم هنا زيادة تؤكد الحكم تأكيدا يطمأن الأولاد الذين ابتلوا بآباء وأمهات أشركوا بالله، « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » وهذه الزيادة والتى اشتملت على كلمة الدنيا تدل على الصحبة المؤقتة .

وشبيه بذلك السياق قوله تعالى « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين »(٢٢) .

وتتكرر الوصية بالوالدين فى مواطن متعددة وبأساليب مختلفة لتكون الإحاطة والشمول سمة بارزة تجمع كل مرادات الله فى المقامات والمواقف والأزمنة والأمكنة .

ويسند الله الوصية إلى نفسه حتى تكون موضع اهتمام ورعاية ، وضمير الجمع فى قوله « ووصينا » الذى يدل على تعظيم الله — تعالى —

(٢٢) سورة الأحقاف الآية ١٥ .

لذاته لأن المقام يتطلب ذلك ولفظ الإنسان المعرف بأل وما يحمله من العموم والجنس وهذا أمر مشاهد حيث لم تر الحيوانات أو غيرها يهتم صغارها بكبارها بل الذى يحدث عكس ذلك فى أوقات معينة .

وبعد الوصية بالوالدين ترى السياق يشتمل على ألفاظ جرسها يكاد ينطق ويجسم العناء والجهد والتعب « وحملته أمه كرها ووضعته كرها » يعيشنا القرآن هذه الأوقات العصيبة وينقلنا إليها بحواسنا ومشاعرنا ولا يوجد بشر لم يمر بمرحلة الحمل والوضع ، وخص القرآن هاتين الحالتين لأن الأم مهما كانت قساوتها أو جحودها فربما بعد الوضع تترك ولدها لكن لابد من تصور الحمل والوضع فلو لم يكن لها من الإحسان والعطاء غير الحمل والوضع لكان ذلك كافيا وموجبا للطاعة والإحسان « والكره بفتح الكاف وضمها مصدر أكره إذا امتعض من شىء ، أى كأن حمله مكروه لها ، أى حال حمله وولادته لذلك »(٢٣) .

وجاءت الأحاديث والآثار تأمر وتحث على طاعة الوالدين والإحسان إليهما .

وقد صدق النبى — ﷺ — وقد جاءه رجل كان فى الطواف حاملا أمه ويطوف بها فسأل رسول الله — ﷺ — هل أديت حقها ؟ فأجابه : لا ، ولا بزفرة واحدة .

ومن غريب الحكايات : أن عمر رأى امرأة تطوف بأبيها وقد جاءت به على ظهرها من بلاد اليمن ، فقال لها : جزاك الله خيرا ، لقد وفيته

(٢٣) التحرير والتنوير جـ ٦ ص ٢٩ .

لحقه ، قالت ، ما وفيته ولا أنصفته ، لأنه كان يحملنى ويود حياتى وأنا أحمله وأود موته »(٢٤) .

وهكذا رأينا النظم الكريم يجعل الأمر بالإحسان إلى الوالدين فى تراكيب عديدة ففى بعضها يأتى الأمر المفيد للوجوب وفى بعضها يأتى بمعنى الإلزام ، وأحيانا يأتى ومعه التحريض وذلك عندما يكون الأمر بصيغة الوصية ، وذلك حتى يكون معاشر الأولاد قد أمروا بكل أساليب الأمر فهو تعالى أمرهم وألزمهم وحرضهم وأوجب عليهم ، وفهمنا من تلك الآيات وجوب طاعة الوالدين فى غير الشرك ، ووجوب الإحسان إليهما ، وعند شركهما تجب معاملتهما بالمعروف وعدم المقاطعة ، وأفادت بمفهومها حرمة عقوق الوالدين بأى لون من ألوان العقوق ولو كان بأقل شىء كما أشارت آية « الإسراء » .

وإن قيل لماذا كثرت الوصية للأولاد دون الآباء والأمهات ، أقول لأن الآباء مدفوعون بفطرهم وجبلتهم إلى فعل المعروف والخير بأولادهم ، أما الأولاد فهم يتجهون إلى الأمام إلى الزوجة والأبناء فيشغلهم ذلك عن البر بوالديهم .

---

(٢٥) البحر جـ ١ ص ٤٥٨ .

الإحسان لذى القربى

المراد بالقرابة الأرحام — أى — مطلق القرابة والعلة فى الاهتمام بهم فى كثير من مواضع القرآن أن الفطرة السليمة تحمل صاحبها على فعل ذلك ، ولأن التناصر يكون بهم فى كثير من المواطن والمواقف ، فالإنسان أيا كانت ملته عندما يقع فى ضائقة أو تلم به ملمة أول من يقع فى خاطره ثم يحول إلى العزم أقاربه ولو كانت الصلات مقطعة وعرى القرابة منفصمة .

والقرآن ينظم العلاقات بين المجتمع حتى تسوده الألفة والمحبة ، ولا ريب أن مجتمعا من المجتمعات صلاته منقطعة وعلاقته ممزقة لا يكون أرضا خصبة لنماء العقيدة وثباتها .

وتنظيم القرآن لتلك العلاقات تنظيم دقيق مرتب حسب الأولويات ، فمثلا إذا ساءت علاقة العبد بخالقه وموجده من العدم لا ريب أن علاقته بسائر أفراد المجتمع ستكون أسوأ أو هى أضعف .

وإذا رأيت إنسانا ساءت علاقته بوالديه فلا ترجو منه أن يحسن علاقته بقرابته فسلامة العقيدة من مظاهرها وثمارها الإحسان للوالدين ولذى القربى ، والسبب العقلى فى تأكيد رعاية هذا الحق أن القرابة مظنة الاتحاد والألفة والرعاية والنصرة ، فلو لم يحصل شىء من ذلك لكان ذلك أشق على القلب ، وأبلغ فى الإيلام والإيحاش والضرورة ، وكلما كان أقوى كان دفعه أوجب فلهذا وجبت رعاية حقوق الأقارب(٢٦) .

---

(٢٦) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ٢٢٩ .

والقربى مصدر كالرجعى ، والألف فيه للتأنيث وهى قرابة الرحم والصلب ، قال طرفة :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على الحر من وقع الحسام المهند (٢٧)

ومن الميثاق الذى أخذه الله (٢٨) على بنى إسرائيل بعد الأمر بعبادته وطاعة الوالدين الإحسان إلى ذوى القربى وجعلهم عقب ذكر الوالدين لأن القرابة لا تتصور إلا بهما .

واعلم أن حق ذى القربى كالتابع لحق الوالدين لأن الإنسان إنما يتصل به أقرباؤه بواسطة اتصالهم بالوالدين ، والاتصال بالوالدين مقدم على الاتصال بذى القربى ، فلهذا أخر الله ذكره عن الوالدين ، وعن أبى هريرة أنه — ﷺ — قال : « إن الرحم شجنة من الرحمن فإذا كان يوم القيامة تقول : أى رب إنى ظلمت ، إنى أسىء إلى انى قطعت . قال : فيجيبها ربها إلا ترضين أن أقطع من قطعك وأصل من وصلك ، ثم قرأ « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » محمد » (٢٩) .

وسبق كذلك فى آية النساء عطف الإحسان لذى القربى على الإحسان للوالدين .

---

(٢٧) البحر المحيط جـ ١ ص ٤٥٣ .
(٢٨) ارجع الى الآية ٨٣ سورة البقرة .
(٢٩) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ٢٢٩ .

وإنما أمر بالإحسان إليهم إستبقاء لأواصر الود بين الأقارب إذ كان العرب فى الجاهلية قد حرفوا حقوق القرابة فجعلوها سبب تنافس وتحاسد وتقاتل ... وحسبك ما كان بين بكر وتغلب فى حرب البسوس وهما أقارب وأصهار وقد كان المسلمون يومها عربا قريبى عهد بالجاهلية فلذلك حثهم على الإحسان إلى القرابة ، وكانوا يحسنون بالجار ، فإذا كان من قرابتهم لم يكترثوا بالإحسان إليه وأكد ذلك بإعادة حرف الجر بعد العاطف ، ومن أجل ذلك لم تؤكد بالباء فى حكاية وصية بنى إسرائيل ... لأن الإسلام أكد أوامر القرابة أكثر من غيره وفى الأمر بالإحسان إلى الأقارب تنبيه على أن من سفالة الأخلاق أن يستخف أحد بالقريب (٣٠) .

وصاحب البحر المحيط يعلل لزيادة الباء هنا وعدم زيادتها هناك فى سورة البقرة فيقول « إلا أن هنا » « وبذى القربى » وهناك « وذى » وإعادة الباء تدل على التوكيد والمبالغة ، فبالغ فى هذه الآية لأنها فى حق هذه الأمة ولم يبالغ فى تلك لأنها فى حق بنى إسرائيل ، والإعتناء بهذه الأمة أكثر من الإعتناء بغيرها إذ هى خير أمة أخرجت للناس (٣١) .

وفى سورة الأنفال يختلف السياق فى الأمر بالإحسان لذوى القربى حيث القرابة قرابة خاصة وهى قرابة النبى — ﷺ — والغرض هو بيان حكم من الأحكام يتعلق بالغنائم .

---

(٣٠) التحرير والتنوير جـ ٥ ص ٤٩ ، ٥٠ .
(٣١) البحر المحيط جـ ٣ ص ٦٣١ .

وذلك فى قوله « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير »(٣٢) .

والآية الكريمة قد بدأت بداية تدل على الاهتمام بشأن ما سيذكر بعده من أحكام متصلة ، والحث على العمل بها واتباعها ، وطلب العلم من المخاطب دليل على الجزم بأن هذا الحكم من قبل الله فلا ريب فيه ولا تردد فى الاستجابة والإنصياع إليه .

وكلمة شىء هى بيان للعموم الذى فى « ما » لا يتوهم السامع أن غنيمة معينة هى التى تنطبق عليها هذه الأحكام .

والمصدر المؤل بعد « أن » فى قوله « فأن لله خمسه » مبتدأ حذف خبره ، أو خبر حذف مبتدؤه ، وتقدير المحذوف بما يناسب المعنى الذى دلت عليه لام الاستحقاق .

أى فحق لله خمسه وإنما صيغ على هذا النظم مع كون معنى اللام كافيا فى الدلالة على الأحقية ، كما قرىء فى الشاذ « فالله خمسه » لما يفيد الإتيان بحرف « أن » من الإسناد مرتين تأكيدا ، ولأن فى حذف أحد ركنى الإسناد تكثيرا لوجوه الإحتمال فى المقدر ، من نحو تقديره نحو ، حق ، أو ثبات ، أو لازم ، أو واجب(٣٣) .

---

(٣٢) سورة الانفال الآية ٤١ .

(٣٣) التحرير والتنوير جـ ١٠ ص ٧ ـ ٨ .

والذى يتأمل وجود ذوى القربى يعلم ما فيه من التكريم للنبى ـ ﷺ ـ والحفاوة به فالقرابة هم قرابته ولهم حق ثابت فى الخمس بتشريع مباشر من قبل الله ولم يوكل الرسول بتشريع ذلك بحديث نبوى كما فى بعض التشريعات حتى لا يكون موضع تهمة أو إنتقاد بأنه انحاز أو مال إلى حب قرابته .

والعدالة الإلهية هى التى قضت بذلك فبجانب التكريم لرسوله روعيت حالة حرمانهم من الصدقة .

وجاءت آية سورة الحشر لتبين نفس الحكم إلا أن الملاحظ فيها العموم فالآية السابقة خصصت وبينت هذا العموم الذى جاء هنا فى قوله « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب »(٣٤) .

والقرآن الكريم يصدر الآية بما يدل على العموم حتى يشمل كل الفىء ـ أى أنه خاضع للقسمة التى قسمها الله بنفسه وإسناد الفىء إليه تعالى بذكر لفظ الجلالة ليدل على أن ذلك كله بمحض فضل الله عليهم حيث لم يقع قتال .

وفى إضافة الرسول ـ ﷺ ـ إلى ضميره ـ تعالى ـ تشريف وتكريم وتأييد له ـ ﷺ ـ والآية بدئت بغير واو لأنها مستأنفة حيث وقعت جوابا لسؤال تضمنته الجملة السابقة فبعد ما بين الله فى بنى

---

(٣٤) سورة الحشر الآية ٧ .

النضير كأن سائلا سأل فما حكم الفيء بالنسبة للبقية الذين تركوا أموالهم بغير إيجاف فجاءت الآية بهذه الإجابة .

ثم يأتى التعليل الذى يشعر بثمرة العدالة التى أرسى قواعدها التشريع الإسلامى حتى تستل سخائم النفوس وتمحى الأحقاد والضغائن من قبل الفقراء على الأغنياء « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » أى حتى لا يكون الفيء متداولا بين الأغنياء ويحرم منه الفقراء فيحدث إثر ذلك الإنقسام والفرقة والنزاع .

والتعبير بقوله « منكم » فيه حث للأغنياء بأنهم لا ينسون الفقراء ولا يهملونهم لأنهم منهم فى الدين وهل ينسى الإنسان نفسه أو جزءا منه .

ثم استعير الإتيان للتشريع الذى جاء به الرسول — ﷺ — والذى منه تقسيم الغنائم والفيء فالأمر بالأخذ عام يشمل هذا الأمر وغيره ، والقرآن بهذا يلبس الأمور المعنوية ثوب المحسوسات لقوة آثارها المترتبة على الالتزام والانقياد .

والمقصود من الآية إبطال ما كان معتادا فى العرب قبل الإسلام من استئثار قائد الجيش بأمور من المغانم وهى المرباع ، وهو الربع والصفايا وهى النفيس من المغانم والنشيطة وهى ما يصيبه الجيش فى طريقه ، والفضول وهو ما فضل ولا يقبل القسمة ، وقد أبطل الإسلام ذلك كله فجعل الفيء مصروفا إلى ستة مصارف راجعة فوائدها إلى عموم المسلمين لسد حاجاتهم »(٣٥) .

(٣٥) التحرير والتنوير بتصرف واختصار ج ٢٨ ص ٨٤ — ٨٥ .

وجاء الأمر بإيتاء ذى القربى عقب الأمر بالعدل والإحسان من قبل الله — تعالى — وذلك فى قوله « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »(٣٦) .

وافتتاح الجملة بحرف التوكيد للاهتمام بشأن ما حوته ، وتصديرها باسم الجلالة للتشريف ، وذكر « يأمر » و « ينهى » دون أن يقال : أعدلوا واجتنبوا الفحشاء للتشويق ونظيره ما فى الحديث « إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا » الحديث(٣٧) .

والتعبير بالفعل المضارع فى قوله « يأمر » و « ينهى » ليدل على استمرار ذلك وعدم انقطاعه بحال من الأحوال .

والعدل عام يشمل كل شيء وهو الأصل الجامع لكل الحقوق ، ولا يخفى ما فيه من الإيجاز ، وكذلك الإحسان الذى أمر الله به هو عام يشمل كل شيء « فإلى حقيقة الإحسان ترجع أصول وفروع آداب المعاشرة كلها فى العائلة والصحبة ، والعفو عن الحقوق الواجبة من الإحسان .

وخص الله بالذكر من جنس أنواع العدل والإحسان نوعا مهما يكثر أن يغفل الناس عنه ، ويتهاونوا بحقه أو بفضله ، وهو إيتاء ذى القربى ، فقد تقرر فى نفوس الناس الاعتناء باجتلاب الأبعد ، واتقاء شره ، كما تقرر فى نفوسهم الغفلة عن القريب والإطمئنان من جانبه

(٣٦) سورة النحل الآية ٩٠ .
(٣٧) التحرير والتنوير ج ١٤ ص ٢٥٤ .

وتعود التساهل فى حقوقه ... وقد كانوا فى الجاهلية يقصدون بوصايا أموالهم أصحابهم من وجوه القوم ... فخص الله بالذكر من بين جنس العدل وجنس الإحسان إيتاء المال إلى ذى القربى .

تنبيها للمؤمنين يومئذ بأن القريب أحق بالإنصاف من غيره وأحق بالإحسان من غيره ، لأنه محل الغفلة ، ومصاحته أجدى من مصلحة أنواع كثيرة .

وعطف الخاص على العام اهتماما به كثير فى الكلام فإيتاء ذى القربى ذو حكمين : وجوب لبعضه ، وفضيلة لبعضه وذلك قبل فرض الوصية ، ثم فرض المواريث ...

ونهى الله عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وهى أصول المفاسد ، فالفحشاء اسم جامع لكل عمل أو قول تستفظعه النفوس لفساده .

والمنكر ما تستنكره النفوس المعتدلة وتكرهه الشريعة من فعل أو قول ...

وخص الله بالذكر نوعا من الفحشاء والمنكر وهو البغى اهتماما بالنهى عنه وسدا لذريعة وقوعه لأن النفوس تساق إليه بدافع الغضب وتغفل عما يشمله من النهى عن عموم الفحشاء بسبب فشوه بين الناس ، وهو الإعتداء فى المعاملة ، إما بدون مقابلة ذنب .. ، وإما بمجاوزة الحد فى مقابلة الذنب(٣٨) .

---

(٣٨) انظر التحرير والتنوير جـ ١٤ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨ .

ومن المحسنات البديعية اللطيفة التى اشتملت عليها الآية المقابلة حيث أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » .

ثم تختتم الآية بهذا الخطاب المحبب إلى نفوس المؤمنين لما فيه من المواجهة والإشعار بالقرب والإشعار بالحرص على المنفعة المتمثلة فى الموعظة والتذكير بما اشتملت عليه الآية من أوامر ونواهى بأسلوب كله رجاء وأمل فى الانتفاع بالموعظة ودوام التذكر وعدم النسيان .

وفى مقام من المقامات نرى إيتاء ذى القربى يتصدر الآية وينتقل من حيز الإحسان إلى حيز الحق الواجب حيث عبر عنه بالحق وذلك فى قوله « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا »(٣٩) .

فبعد ما بين الله ـ تعالى ـ فى الآيات السابقة حقوق الوالدين من وجوب الإحسان إليهما وخاصة عند الكبر ، وبين كيف يكون هذا الإحسان ، عرج على القرابة وهم الرحم لأن درجتهم تلى الوالدين من حيث الترتيب .

وقبل هذه الآية جاء قوله « ربكم أعلم بما فى نفوسكم » حيثما كان الخطاب للجمع ثم هنا عدل عنه إلى خطاب المفرد « وآت ذا القربى » والعلة منه تجنب كراهة إعادة الصيغة الواحدة عدة مرات ، والمخاطب غير معين فهو فى معنى الجمع(٤٠) .

---

(٣٩) الاسراء الآية ٢٦ .

(٤٠) انظر التحرير والتنوير جـ ١٥ ص ٧٦ .

والإيتاء حقيقة فى إعطاء الأشياء ، ومجاز فى الأمور المعنوية مثل التعاون والنصرة وغير ذلك وهـذا من بدائع القرآن فى إيجازه حيث يستعمل الألفاظ القليلة والتى تحتمل العديد من المعانى .

و « أل » فى « القربى » للجنس وهو عوض عن المضاف إليـــه والتقدير : القربى منك أو قرباك .

والعلة فى العدول عن الإحسان إلى للحق لأن هناك أمورا واجبة يتحتم على المسلم الوفاء بها وذلك مثل الوصية لغير الوارث أو لوارث إذا أجازها بقية الورثة ، وكذلك المواريث .

الإحســان لليتــامى

ويكثر القرآن من الوصية بالإحسان إلى اليتامى والاهتمام بشئونهم والعلة فى ذلك تعويض اليتيم عن رعاية الأب وعطفه وحنانه ، بذلك تخف وطأة الحرمان والفقدان ، والإسلام يشعر اليتيم بأن المجتمع كله أصبح يرعاه ويعتنى به .

وكذلك جرت عادة الناس بأن ينصرفوا ويبتعدوا ممن لا يرون فيه نفعا ولا تنتظر منه فائدة لذلك كثر الأمر بالإحسان والإيتــاء والرعاية والعناية ، وثمرة ذلك دفع ما عسى أن يكون من أحقاد وأضغان بسبب الحرمان والإهمال ، فاليتيم الذى يرعاه المجتمع عندما يبلغ ويشتد ينبع الحب من قلبه ويعامل اليتامى بنفس الذى عامله به المجتمع ، وبهـذا تسود الألفــة والمحبة بين أفــراد المجتمع وتزول الضــغائن وتطمئن القلوب .

واليتامى : فعال ، وهو جمع لا ينصرف ، لأن الألف فيه للتأنيث ، ومفرده يتيم ، كنديم ، وهو جمع على غير قياس ، وكذا جمعــه على أيتــام .

وقال الأصمعى : اليتيم فى بنى آدم من قبل الأب ، وفى غيرهم من قبل الأم . وحكى المــاوردى أن اليتيم فى بنى آدم يقال لمن فقــد الأم ، والأول هو المعروف ، وأصله الإنفراد ، فمعنى صبى يتيم أى : منفرد عن أبيه ، وسميت الدرة التى لا مثيل لها يتيمة ، لانفرادها . قاله ثعلب . ، وقيل أصل اليتيم الغفلة ، وسمى الصبى يتيما لأنه يتغــافل

عن بره ، وقيل أصل اليتيم الإبطاء ومنه أخذ اليتيم ، لأن البر بطيء عنه ما قاله أبو عمرو(٤١) .

فى الآية ٨٣ من سورة البقرة سبق القول بأن الله تعالى قد أخذ الميثاق على بنى إسرائيل بأن يعبدوا الله وحده وأن يحسنوا للوالدين والأقربين ، ثم عطف على ذلك الإحسان لليتامى وهم الذين فقدوا آباءهم وهم دون البلوغ ، وهذا يدل على اهتمام الشرع الحكيم بهم حيث جعل الإحسان إليهم يلى مرتبة الوالدين والأقربين .

ويعلل صاحب مفاتيح الغيب لمجىء الإحسان لليتامى عقب الإحسان للوالدين والأقربين بقوله « اليتيم كالتالى لرعاية حقوق الأقارب ، وذلك لأنه لصغره لا ينتفع به ليتمه وخلوه عمن يقوم به يحتاج إلى من ينفعه ، والإنسان قلما يرغب فى صحبة مثل هذا ، وإذا كان هذا التكليف شاقا على النفس لا جرم كانت درجته عظيمة فى الدين .

وروى أنه لما نزلت « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا » الآية تحامى الناس عن مخالطة اليتامى وتعهد أموالهم فشق عليهم ذلك فذكروه للنبى — ﷺ — فنزلت(٤٢) « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم »(٤٣) .

---

(٤١) البحر المحيط ج ١ ص
(٤٢) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٢٢٠ .
(٤٣) سورة البقرة الآية ٢٢٢ .

وفى ذكر السؤال تأكيد لما حدث لهم من حرج ومشقة حيث كانوا فى حيرة من أمرهم ، وفى الكلام حذف لأن المسئول عنه هو حال اليتامى والغرض منه الإيجاز للعام به ، والإصلاح كلمة عامة تشمل كل ما هو نافع لهم .

ووصف الإصلاح « لهم » دون الإضافة إذ لم يقل إصلاحهم ، لئلا يتوهم قصره على إصلاح ذواتهم .

وقد أبدع هذا التعبير فإنه لو قيل إصلاحهم لتوهم قصره على ذواتهم فيحتاج فى دلالة الآية على إصلاح الأموال إلى القياس ، ولو قيل — قل تدبيرهم خير — لتبادر إلى تدبير المال فاحتيج فى دلالتها على إصلاح ذواتهم إلى فحوى الخطاب(٤٤) .

واختار القرآن إن الشرطية لأن ذلك لم يقع منهم وعبر بالفعل المضارع حتى تكون المخالطة منهم دائمة وغير منقطعة لأى سبب من الأسباب .

وقوله « إصلاح لهم خير » فيه تعريض بأن عدم الإصلاح لهم شر .

والمخالطة مجاز فى شدة الملابسة ، وحذف المبتدأ والتقدير فهم إخوانكم .

وقوله « والله يعلم المفسد من المصلح » فيه وعد ووعيد خلا أن فى تقديم المفسد مزيد تهديد وتأكيد الوعيد »(٤٥) .

---

(٤٤) التحرير والتنوير
(٤٥) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٢٢٠ .

وحذف مفعول المشيئة فى قوله « ولو شاء الله لأعنتكم » لأن ما بعده يدل عليه وقد كثر حذف مفعول المشيئة فى كلامهم للإيجاز .

وقوله « إن الله عزيز حكيم » تزييل لما اقتضاه شرط « لو » من الإمكان وإمتناع الوقوع « عزيز » غالب قادر فلو شاء لكلفكم العنت لكنه حكيم يضع الأشياء فى مواضعها فلذا لم يكلفكموه »(٤٦) .

ومن المحسنات البديعية الطباق فى قوله المفسد من المصلح ، وقد أحدث هذا جمالا فى العبارة وتقوية المعنى .

قوله تعالى « وأتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا »(٤٧) .

والآية التى قبل هذه الآية أمرت بالتقوى والتى من دواعيها المحافظة على أموال اليتامى وعدم التصرف فيها بشىء يؤدى إلى الإجحاف والظلم ، وكذلك لما ذكر الأرحام إنتقل إلى الأوصياء على اليتامى الذين هم فى الغالب يكونون من الأقارب .

والمراد بايتاء أموالهم تركها سالمة غير متعرض لها بسوء فهو مجاز مستعمل فى لازم معناه لأنها لا تؤتى إلا إذا كانت كذلك ، والنكتة فى هذا التعبير الإشارة إلى أنه ينبغى أن يكون الغرض من ترك التعرض إيصال الأموال إلى من ذكر ، لا مجرد ترك التعرض لهم .

والتعبير بالخبيث والطيب للتنفير عما أخذوه والترغيب فيما

---

(٤٦) التحرير والتنوير جـ ٢ ص ٣٥٨ .
(٤٧) سورة النساء الآية ٢ .

أعطوه ... ومورد النهى حينئذ ما كان الأوصياء عليه من أخذ الجيد من مال اليتيم ، وإعطاء الردىء من مال أنفسهم فقد أخرج ابن جرير عن السدى أنه قال : كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ويجعل فى مكانها الشاة المهزولة ، ويقول شاة بشاة ، ويأخذ الدرهم الجيد ويضع مكانه الزائف ويقول درهم بدرهم(٤٨) .

والأكل إستعارة للإنتفاع المانع من إنتفاع الغير وهو الملك التام لأن الأكل هو أقوى أحوال الاختصاص بالشىء لأنه يجوزه فى داخل جسده ، ولا مطمع فى إرجاعه ، وضمن تأكلوا معنى تضموا(٤٩) .

وفى إضافة الأموال إليهم دليل على ملكيتهم لها واستيلائهم عليها ؟ ، وفى إضافة الأموال إلى الأوصياء تنفير من القدوم على ذلك وإشعار بفداحة الظلم المترتب على ضم الأموال إلى أموالهم .

ثم يأتى التعليل الذى من أجله أمرهم ثم نهاهم ثم نهاهم « انه كان حوبا كبيرا » وصدر هذا التعليل بالتأكيد بـ « إن » وكان التى جاءت من أجل التوكيد حيث يستقيم المعنى لو أنها حذفت وقوله « كبيرا » وهو وصف للإثم والغرض منه المبالغة .

ثم أمر الأوصياء أن يدفعوا الأموال إلى اليتامى عندما يبلغون الرشد وذلك فى قوله « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا

---

(٤٨) انظر روح المعانى جـ ٤ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .
(٤٩) التحرير والتنوير جـ ٤ ص ٢٣ .

دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا » (٥٠) .

وهـذا حكم آخر يختلف عن سابقه لأن هنا طلب من الأولياء والأوصياء دفع الأموال إلى الأيتام عند رشدهم لذلك قال « فإن آنستم منهم رشدا » أى أحسستم أو تبينتم قدرتهم على حسن التصرف مع عدم السفه بالتبذير .

وتقديم الجار فى قوله « منهم رشدا » للاهتمام بالمقدم والتشويق للمؤخر ، أو للاعتداد ، بمبدئيته له .

وهناك عبر بالإيتاء وهنا عبر بالدفع لتباين المقامين ، وكمة الدفع أقوى وأبلغ فى شحذ همة الوصى فى إعطاء الحق كله من غير تأخر أو تكاسل .

أو حجب بعضه ، وفى إضافة الأموال إليهم زجر للوصى وتنبيه له حتى لا يجور ولا يأخذ حق غيره .

ونهى القرآن الأوصياء عن المبادرة والإسراع بالأكل والإسراف خوفا من كبر اليتيم فيدفع ماله إليه « ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا » .

وأمر الله الأولياء والأوصياء إن كانوا أغنياء بالتعفف عن أموال الأيتام وإن كانوا فقراء يأكلون بالمعروف بقدر حاجتهم وبذلهم للجهد ورعايتهم لهم .

وقوله « فليستعفف » أبلغ من يتعفف لما فيه من طلب العفة فإن

(٥٠) سورة النساء الآية ٦ .

كان الوصى عفيفا بالغنى فليطلب عفافا إلى عفافه يكبح به جماح نفسه . وطمعها فى الزيادة ، وإن لم يكن عفيفا فليطلب العفاف إبتداءا .

وأسلوب الشرط فى قوله « فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم » يدل على إن طائفة لا تفعل ذلك أى لا ترد الحقوق لليتامى بعد رشدهم ، أو جاء به تعليما لهم قبل رشد اليتامى حتى يكون هناك استعداد للاستقلال والانفصال . وفائدة الاشهاد تبرئة الذمة وخوف الخلاف والشقاق والنسيان .

وزيلت الآية بقوله « وكفى بالله حسيبا » لزجر الأوصياء وتخويفهم ، من مغبة المخالفة وتجاوز ما حده الله من حدود وبينة من أحكام .

إن القريب واليتيم والمسكين هم فى أمس الحاجة إلى تطييب خواطرهم بالإحسان إليهم « وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » (٥١) .

ويعلل أبو السعود لتقديم المفعول وهو قوله « القسمة » على الفاعل وهو قوله « أولوا » فيقول « وإنما قدمت مع كونها مفعولا لأنها المبحوث عنها ، ولأن فى الفاعل تعددا ، فلو روعى الترتيب يفوت تجاوب أطراف الكلام » (٥٢) .

والراجح أن الأمر فى قوله « فارزقوهم » للندب لأن حضور قسمة المواريث بالنسبة لليتيم والمسكين غير موجب للإعطاء ، ما لم تكن نسخت آية المواريث .

(٥١) النساء الآية ٨ .
(٥٢) تفسير أبو السعود جـ ٢ ص ١٤٧ .

ومعنى « من » فى قوله « منه » التبعيض أى من بعضه وذلك حتى لا يتخلص المتصدق من كل نصيبه من التركة فيظل فقيرا محتاجا .

ثم تختم الآية بهذا القيد المتمم والمكمل للإعطاء والتصدق وهو قوله « وقولوا لهم قولا معروفا » ويكون ذلك بالدعاء لهم ، وأن يستقلوا ما أعطوهم ، وإن يعتذروا لهم وألا يتبعوا ذلك بالمن والأذى ، فهذا التزييل أكمل المعنى وأتمه إذ بدونه ربما يحدث من المتصدق ما يحبط عمله ويدفع ثوابه ، ويعرض المحتاج للامتهان والمذلة والاحتقار ، وهذا يتنافى كل المنافاة مع مقاصد التشريع الحكيم .

وفى الآية (٣٦) من سورة النساء بعد ما أمر الله بعبادته ونهى عن الإشراك أمر بالإحسان إلى الوالدين ثم إلى ذى القربى ثم ثنى بالإحسان اليتامى ، والأمر هنا لكافة المؤمنين فى كل عصر ومصر .

وقد سبق فى قسمة الغنائم فى سورة الأنفال الآية (٤١) أن خمس الغنائم لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فاليتامى حتى فى قسمة الغنائم لهم نصيبهم غير منقوص ، وكذلك فى آية سورة الحشر حيث لم يغفل نصيبهم من الفىء كما سبق .

وأثنى الله على قوم وامتدحهم بما فعلوه من خلال حميدة ورتب على ذلك جزاءهم الأوفى يوم القيامة . الذى كانوا يخافون منه ويصفونه بالعبوس والقمطرير وذلك فى قوله « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا . وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا (٥٣) .

(٥٣) سورة الانسان الآيات ٨ ـ ١٢ .

خص الإطعام بالذكر لما فى إطعام المحتاج من إيثاره على النفس كما أفاد قوله « على حبه » والتصريح بلفظ الطعام مع أنه معلوم من فعل « يطعمون » توطئة لبينى عليه الحال وهو « على حبه » فإنه لو قيل : ويطعمون مسكينا ويتيما وأسيرا ، فات ما فى قوله « على حبه » من معنى إيثار المحاويج على النفس ، على أن ذكر الطعام بعد « يطعمون » يفيد تأكيدا مع استحضار هيئة الإطعام حتى كأن السامع يشاهد الهيئة (٥٤) .

والمراد بالمسكين المحتاج ، واليتيم الذى فقد أباه وهو دون البلوغ ، وهو مظنة الحاجة لأن أحوال العرب كانت قائمة على اكتساب الأب للعائلة بكدحه فإذا فقد الأب تعرضت العائلة للخصاصة ، والأسير هو العبد لأن الآية نزلت فى مكة قبل الغزو والمراد العبيد من المسلمين الذين كانوا تحت أيدى المشركين وكانوا يعذبونهم بالجوع ، مثل بلال وعمار وغيرهم .

والعلة من قولهم « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » هى التأنيس حتى لا تنكسر نفوسهم بسبب الإطعام بغير مقابل وتكون عندهم قناعة أن الدافع للإطعام هو الاستجابة لأمر الله فحسب فكأن الذى يطعمهم هو الله ، وهذا يقطع مخافة المن والتفضل فى المستقبل اللذان يكونان مانعا من الإقدام على قبول الصدقة رغم الحاجة إليها .

(٥٤) التحرير والتنوير جـ ٢٩ ص ٣٨٤ .

والقصر المستفاد من قوله « إنما نطعمكم » هو قصر قلب مبنى على تنزيل المطعمين تنزيل من يظن أن من سيطعمهم يمن عليهم ، ويريد منهم الجزاء والشكر بناء على المتعارف عندهم فى الجاهلية(٥٥) وهو قصر إضافى روعيت فيه حالة المخاطبين والعلة من ذلك القصر تقوية وتأكيد التأنيس والترفق الذى سبقت الإشارة إليه .

وقولهم « إنما نطعمكم لوجه الله » وقولهم « إنا نخاف » ...الخ. على طريقة اللف والنشر المعكوس ، والداعى إلى عكس النشر مراعاة حسن تنسيق النظم ليكون الإنتقال من ذكر الإطعام إلى ما يقولونه للمطعمين ، والإنتقال من ذكر يوم الحساب إلى بشارتهم بوقاية الله إياهم من شر ذلك اليوم ، وما يلقونه فيه من النضرة والسرور والنعيم(٥٦) .

وإذا نظرنا إلى اسناد العبوس إلى اليوم فيكون فى الكلام مجاز عقلى علاقته الزمانية والقرينة إستحالة وقوع ذلك من اليوم ، وإنما يقع فيه ، والسر البلاغى وصف ما يحدث فى هذا اليوم من آثار نشوء أهل الضلال والكفر وتجعل العبوس كثيرا وملازما فكأنما اليوم أصبح يشاركهم فى هذا العبوس ، ولا يخفى ما فيه من الزجر والتخويف لأهل الإنحراف والضلال والبعد عن منهج الله .

وإذا نظرنا إلى حالة التشبيه فيكون فيه معنى الاستعارة حيث شبه اليوم الذى يحدث فيه ما يسؤهم برجل يكون سيء الأخلاق شرسا فى معاملته ، والوصف بالصفة المشبه يؤكد المعنيين ويقويهما .

---

(٥٥) انظر التحرير والتنوير جـ ١٩ ص ٣٨٥ .
(٥٦) التحرير والتنوير جـ ٢٩ ص ٣٨٦ .

ومن المحسنات البديعية جناس الاشتقاق بين قوله « يطعمون » و « الطعام » والجناس غير التام بين « فوقاهم » و « لقاهم » وهذه المحسنات اللفظية تكسب المعنى قوة ووضوحا لأن النفس ترتاح وتطمئن إلى المعانى التى تلبس أثوابا تمتعها وتريحها ، والمعانى الخالية من المحسنات شبيهة بالبيت الذى دكن بناءه وأساسه وأهملت حايته وزخرفته لا ريب أن النفس تمله وتأنف منه وهذا مشاهد معروف .

وهذه الآيات سقتها لبيان فضل وثواب وجزاء الإحسان إلى اليتيم ، ومن باب الإحسان عدم التعرض لمال اليتيم بالتلف أو الانقاص أو التعرض لليتيم نفسه بالإهانة أو الازدراء أو الحط أو الإقلال من شأنه ، اذلك ترى القرآن الكريم فى كثير من آياته يحذر وينذر ويتوعد الأولياء أو الأوصياء وغيرهم ممن يظلمون أو يتسببون فى ظلم اليتيم ، فبعض الآيات اتخذت النهى عن قرب مال اليتيم سبيلا إلى التحذير وبعض الآيات استحضرت صورة الجزاء المحزن الذى سيكون عليه من أكل مال اليتيم أو ظلمه .

ومن ذلك قوله « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا »(٥٧) وبدأ هذا التهديد الإلهى بحرف التوكيد « إن » حتى لا يرتاب فيه ظالم أو جاحد ، وهذه المسحة تناسب هذا القدر اليسير الذى ربما يحدث من البعض .

والعلة فى تعريفهم بالموصول ليكون الحكم عاما وشاملا للكل فى مختلف العصور والدهور ليفيد ذمهم بما فى حيز الصلة ولتكون تمهيدا

---

(٥٧) سورة النساء الآية ١٠ .

وتعريفا بالخبر قبل مجيئه ولا ريب أن ذلك أوقع فى نفس السامع من ذكر الخبر بدون تقديم أو تمهيد .

وذكر الأكل دون سواه مثل الحوز والحرق وغير ذلك لأن الأكل أقواها فى التلف حيث لا يمكن إرجاعه واستحضر وصف اليتيم ليبين للسامع فداحة هذا الظلم حيث لا حول لهم ولا قوة فى دفع الأذى ورد البغى ويحمل بذلك المجتمع المسلم على تحقيرهم وكفهم ويحمله على مؤازرة اليتامى والشفقة عليهم .

وتقييد الأكل بالظلم يخرج من أكل بالمعروف « ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » .

أما أكل النار فى البطون المترتب على أكل أموال اليتامى فقد اختلف فى المراد به على ثلاثة أقوال :

١ ــ النار مجاز مرسل من ذكر المسبب وإرادة السبب .

٢ ــ وجوز فى ذلك الإستعارة ، على تشبيه ما أكل من أموال اليتامى بالنار لحق ما معه ، واستبعده بعض المحققين .

٣ ــ وذهب بعضهم إلى جواز حمله على ظاهره ، فعن عبيد الله ابن جعفر أنه قال : من أكل مال اليتيم فإنه يؤخذ بمشفره يوم القيامة فيملأ فمه جمرا ، ويقال له كل ما أكلته فى الدنيا ثم يدخل السعير الكبرى (٥٨) .

وأرجح الرأى الأخير لأنه أنسب للزجر والتخويف ولأنه يتفق مع

(٥٨) روح المعانى جـ ٤ ص ٢١٥ .

كون الجزاء من جنس العمل ، ونظير ذلك فى كتاب الله كثير مثل « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

واختار السين دون سوف فى قوله « وسيصلون سعيرا » لأنها الأنسب فى قرب ما وعدوا به من العذاب .

وفى مقام آخر ينهى القرآن عن قرب مال اليتيم وهو أبلغ لأنه مظنة الأخذ والأكل ، وهو مسلك من مسالك الشيطان .

وذلك فى قوله « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » (٥٩) .

بدأت الآية بالنهى والتحذير من القرب من مال اليتيم والمراد بالقرب التعرض له بالتلف والأخذ بدون وجه حق أما إذا كان الغرض هو التنمية بالاتجار ، أو أخذ المعتاد من أجره أو غير ذلك فلا بأس ولا حرج .

وفى إضافة المال لليتيم دليل على ملكيته ، وذكر وصف اليتم ليشعر الوصى بما تحمله اللفظة من معنى الإنكسار والاحتياج وهذا من شأنه أن يؤدى إلى أن يتيقظ ضمير الوصى وأن تثار فى نفسه الشفقة والرحمة .

ثم جاء أسلوب الإستثناء بعد النهى حتى لا يفهم الأوصياء أن

(٥٩) سورة الأنعام الآية ١٥٢ .

ذلك نهى عاما يترتب عليه إهمال مال اليتيم وعدم أخذ حقهم أى الأوصياء — بذلك يقع الظلم عليهم ويحجزون عن رعاية الأيتام وصيانة أموالهم .

ومثل ذلك قوله « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلا »(٦٠) .

وقوله تعالى « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث »(٦١) .

وكلمة القهر يدور معناها عند المفسرين فى فلك الظلم — والتسلط وعدم إعطاء الحق .

لكن بنت الشاطىء — عائشة عبد الرحمن — قد رأت أن القرآن يرمى إلى معانى أكبر من هذه فتقول « ونرى الإيحاء النفسى للكلمة القرآنية « فلا تقهر » أعمق وأدق من أن يضبط بهذه التفسيرات المحدودة ، فلا الظلم ، ولا التسلط بما يؤذى ، ولا منع الحق ببالغ فى التأثير ما يبلغه قوله تعالى « فلا تقهر » إذ يجوز أن يقع القهر مع إنصاف اليتيم وإعطائه ماله ، وعدم التسلط بالأذى . لأن حساسية اليتيم ، بحيث تتأثر بالكلمة العابرة واللفتة الجارحة عن غير قصد ، والنبرة المؤلمة بلا تنبه وإلم يصحبها تسلط بالأذى ، أو غلبة على ماله وحقه(٦٢) .

---

(٦٠) سورة الاسراء الآية ٣٤ .

(٦١) سورة الضحى الآية ٩ — ١١ .

(٦٢) التفسير البيانى للقرآن الكريم جـ ١ ص ٥٣ .

ومن خصائص النظم والذى أكسب الكلام ملاحة والمعنى قوة ، المقابلة اللطيفة « ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك عائلا فأغنى » قابلها بقوله « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر » .

والجناس الناقص بين « تقهر » و « تنهر » لتغير الحرف الثانى من الكلمتين .

والسجع المرصع كالدر المنظوم فى عقد كريم « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى .. الخ »(٦٣) .

وتقديم « اليتيم » وهو مفعول على فعله « تقهر » وذلك للاهتمام بشأن المقدم .

هذه إطلالة سريعة أظهرت وأوضحت اهتمام القرآن البالغ بشأن اليتامى نظرا لمركب النقص وهو متركز بطبيعة الحال حيث فقدوا العائل والمنفق ، وراعى ما يعتمل فى نفوسهم من آثار التأثر والحزن عند رؤيتهم للأولاد الذين يعيشون فى كنف ورعاية وعناية آبائهم .

لذلك شاهدنا المرغبات والإكثار من وصاية الأوصياء بالإحسان إليهم ، ثم الإنذار والتحذير الشديد من عاقبة الظلم والتعدى على حقوقهم وأموالهم .

وإذا تحقق مراد الله من الأوصياء فلن يشعر اليتيم بيتم لأنه سيلحظ ويشعر ويحس بهذه العناية التى تفوق العناية بالأولاد لأن مصادرها متعددة ومتنوعة ، أما الأبوة فمصدرها واحد ، فأنعم بهذا الشرع الحكيم الذى لا يحس فى ظله بيتم أو ضعف .

---

(٦٣) انظر صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٥٧٤ .

الإحسان للمساكين

وهـذا صـنف يلى تلك الأصناف من المحاويج والذين ربما ينشغل الناس عنهم وعن حاجاتهم فيقصرون فى الإحسان إليهم ، أو يقصرون فى إعطـاء الواجب والحق الذى أوجبـه الله ــ تعالى ــ مثل الزكاة المفروضة ، والإحسان وإعطاء المساكين حقهم أمران يؤلفـان القلوب ويجمعان شمل الأمة ويكونان حصنا وسياجا مانعا ، ووقاية من الأحقاد والأضغان التى تنشأ بسبب حب التملك وجمع المـال ونسيان الحقوق والواجبات فيما زاد على الحاجة .

والمساكين واحدها مسكين ، أخذ من السكون كأن الفقر قد سكنه، وهو أشد فقرا من الفقير ، عند أكثر أهل اللغة وهو قول أبى حنيفـة ــ رضى الله عنـه ــ واحتجوا بقوله تعـالى « أو مسكينا ذا متربة » (البلد الآية ١٦) وعند الشافعى ــ رضى الله عنه ــ الفقير أسوأ حالا ، لأن الفقير اشتقاقه من فقار الظهر ، كأن فقاره انكسر لشدة حاجته ، وهو قول ابن الأنبارى واحتجوا عليه بقوله ــ تعالى ــ « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر » (الكهف الآية ٧٩) جعلهم مساكين مع أن السفينة كانت ملكا لهم(٦٤) .

وقد سبق فى الآية ٨٣ البقرة ــ ذكر الإحسـان للوالدين وذى القربى واليتامى ثم عطف المساكين عليهم و « إنما تأخرت درجتهم عن اليتامى لأنه قد يكون بحيث ينتفع به فى الإستخدام ، فكأن الميل إلى مخالطته أكثر من الميل إلى مخالطة اليتامى ، ولأن المسكين أيضا يمكنه

---

(٦٤) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ٢٣٠ .

الاشتغال بتعهد نفسه ومصالح معيشته ، واليتيم ليس كذلك فلا جـرم قدم الله ذكر اليتيم على المسكين »(٦٥) .

وسبق فى الآية ٨ من سورة النساء عنـد الحديث عن حضـور القسمة ــ أى قسمة المواريث حيث أمر أصحاب التركات بالإحسـان وإعطاء القرابة واليتامى والمساكين نصيبا يؤلف قلوبهم ، ويشفع هـذا الإعطاء بالقول المعروف للتخلص من آفة المن والأذى .

ونلحظ أن هـذه الآية سبقت الآيات التى عنيت بتفصيل قسمة المواريث وذلك لتكون توطئة وتمهيدا لمـا ينبغى أن يحدث من أمور من شأنها أن ترقى بالمجتمع إلى مراقى الكمال ، مثل التصدق على من حضر من هؤلاء والإحمال فى القول لهم ، والعلة فى هـذا التمهيد المشتمل على التنبيه لأن المـال له بريقه ، والأثرة وحب النفس ربما ينسى هـذا القيم الغالية عند بعض الناس .

ويعلل صاحب مفاتيح الغيب لتقديم اليتيم على المسكين فى الذكر فيقول « واعلم أنه ــ يعنى المسكين ــ وإن كان عديم المـال إلا أنه لكبره يمكنه أن يعرض حال نفسه على الغير ، فيجلب به نفعا أو يدفع به ضررا ، وأما اليتيم فلا قدرة له عليه ، فلهذا المعنى قدم الله اليتيم فى الذكر على المسكين »(٦٥) .

وفى الآية ٤١ من سورة الأنفال يأخذ المساكين حظهم وحقهم فى

---

(٦٥) نفس المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٣٠ .
(٦٥) مفاتيح الغيب جـ ٩ ص ٢٠٦ .

الخمس بعد حق الله والرسول، وذى القربى واليتامى ، وكذلك فى الفىء الذى سبقت الإشارة إليه فى الآية ٧ من سورة الحشر .

والمسكين تجاوز حد الإحسان ليدخل فى دائرة أصحاب الحقوق مثل القرابة وابن السبيل كما سبق ذكره فى الآية ٢٦ من سورة الإسراء وكذلك فى الآية ٣٨ من سورة الروم ، وبعد ذكر حق المسكين وابن السبيل .

نرى الآية بعد ذلك تختتم بمدح الذين استجابوا لأمر الله — تعالى — بأنهم يقصدون بصنعهم هذا وجه الله فهم لا يريدون أجرا ولا ثناء ولا مدحا ، ثم عرفهم باسم الإشارة الذى هو للبعيد ثم ضمير الفصل للتوكيد ليترتب على ذلك جزائهم « ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون » ٣٨ الروم .

وفى الآية ٨ من سورة الإنسان قد علمنا أن قوما مدحهم الله — تعالى — لأنهم يتخلقون بالأخلاق الكريمة والتى منها إطعام الطعام لا لغرض دنيوى أو جاه أو رياء وإنما يقصدون بذلك وجه الله — تعالى — .

والسياق هنا يختلف عن السياقات السابقة حيث هناك تأخرت رتبة المسكين عن اليتيم أما هنا فتقدمت رتبة المسكين على اليتيم ، وذلك لأن تلك السياقات كان الأمر بالإحسان فيها عاما حيث يشمل المال والكساء والحق والقول وغير ذلك من وجوه الإحسان والتى الإطعام داخل ضمنها ، أما هنا فخص وجها واحدا من وجوه الإحسان وهو الإطعام . ولا ريب أن فى الغالب حاجة المسكين إلى الطعام أقوى وأشد من حاجته إلى غيره لأن عليه قوام الحياة ، وما عداه يمكن الاستغناء

عنه ، أما اليتيم فقد يكون له المال الوفير الذى يطعم منه لكن يضن عليه الأوصياء فى أمور أخرى هى محل مطمع وإغراء ، ولم يكن الطعام فى حال من الأحوال موضع مطمع بالنسبة للأولياء أو الأوصياء .

وجاء الحديث عن ابن السبيل متأخرا حيث لم تكن قرابة تدعو إلى الإحسان ، ولا يتم ولا مسكنة ، وإنما الغربة والسفر والانقطاع عن الأهل والبلد ، وهذه الأمور غير منضبطة ، ولا معلومة عند المحسن أو المتصدق .

الإحسان للجـــار

والجار له مكانته لقربه وإمكان النصرة والاستعانة به عندما تدعو الحاجة لذلك .

والآية ٣٦ من سورة النساء جاءت الوصية بالإحسان إلى الجـــار بعـــد الأمر بعبادة الله والإحسان إلى الوالدين ، واليتامى والمساكين ، ثم عطف على ذلك الإحسان إلى الجار ، سواء كان قريبا ، أو غريبا .

والجار ذى القربى قيل هو الذى قرب جواره ، والجار الجنب بعد جواره ، قال عليه الصلاة والسلام — لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه ، ألا وإن الجار أربعون دارا ... وعن أبى هريرة : قيل يا رسول الله إن فلانة تصوم النهـــار وتصلى الليل وفى لسانها شىء يؤذى جيرانها ، فقال عليه الصلاة والسلام لا خير فيها هى فى النار ، وقال — ﷺ — أتدرون ما حـــق الجـــار ؟ إن افتقر أغنيته ، وإن استقرض أقرضته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابه شر عزيته ، وإن مرض عدته ، وإن مات شيعت جنازته » .

والصاحب بالجنب هو الذى صحبك بأن حصل بجنبك إما رفيقا فى سفر ، وإما جارا ملاصقا ، وإما شريكا فى تعلم أو حرفة ، وإما قاعدا إلى جنبك فى مجلس أو مسجد ، أو غير ذلك من أدنى صـــحبة التأمت بينك وبينه ، فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه ، وتجعله ذريعة إلى

الإحسان (٦٦) .

وبهذا يكون الإسلام قد جمع كافة أنواع الجار وليس الجار فى الســـكن فقط وهـــذا يؤدى إلى ترابط المجتمع المسلم بكافة طبقـــاته وألوانه وأشكاله ، والعموم الذى اشتملت عليـــه الآيات يؤكد هـــذا المعنى ويقويه .

---

(٦٦) مفاتيح الغيب جـ ٩ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

وبعـــــد

فهذه رحلة قصيرة سريعة عشت فيهـا مع كتاب الله أتأمل وأتدبر تلك الآيات التى ذخر بها الكتاب العزيز وهى تعلم المجتمع كله وتلفت أنظاره إلى هـذه الفئات والأصناف التى تحتـاج إلى رعاية وعنـاية وشفقة وود .

والعلة فى اهتمام القرآن بهذه الأصناف انصراف كثير من أبناء المجتمع المسلم عن الإحسان إليهم ، ونظرتهم القاصرة إلى عدم الإنتفاع منهم ، وزهدهم فيما لديهم حيث اليتم والفقر والمسكنة ، وغير ذلك مما هو مشاهد .

وسلك القرآن فى سبيل ذلك أرقى الأساليب المؤثرة والتى رسمت صورة هؤلاء وبينت حالتهم بما يثير الشفقة ويخلق الرأفة والتحنن ، فما هـذه الأساليب إلا تطهير وتنقية وتصفية للقلوب ، التى اختلط بها أو غرها الحرص والشح والاختيال والافتخار .

والقرآن سلك أسلوبين الترغيب والترهيب ، الترغيب بما سيكون من جزاء وثواب يحسن إلى هؤلاء ، والترهيب بما سيكون لهم من عقاب مؤلم وعذاب شديد ، والعلة فى تنوع الأسـاليب من ترغيب وترهيب اختلاف طباع البشر فبعض النفوس يؤثر فيهـا الترغيب أبلغ تأثير ، وبعضها يخشى الترهيب ويتوقاه .

ولا ريب أن للبلاغة أكبر الأثر فى بيان ذلك وتوضيحه ، فالمجازات التى شاعت فى بعض تلك الأساليب وهى تلبس الأمور المعنـوية ثوب المحسوسات والأساليب الإنشائية التى كثرت فى تلك الصور وما لها

من إثارة الانتباه وحفز الهمم وتنشيطها حيث المواجهة المدنية والمقربة فى أساليب الأمر والنهى ، وأساليب القصر التى أفادت توكيد المعانى وتقويتهـا .

وآثر القرآن اختيار الألفاظ التى تؤثر تأثيرا قويا وفعـالا فى نفوس المخاطبين ، مثل لفظ الوالدين ، دون الأم والأب ولفظ اليتيـم بدل فقد الأب ، ولفظ المساكين ، بدلا من لفظ الحـاجة ، وكثير من تلك الألفاظ المؤحية والمعبرة عن أحـوال أصحابها .

والدقة المتناهية فى ترتيب أصحاب الحقوق حتى تكون البـداية بالمهـم ، فلا يعقل مثـلا أن يبـدأ المحسن بالمساكين ويؤخر أو يهمل الوالدين ، وهـذا الترتيب من شأنه أن يقطع الحيرة والتردد فى نفس المتصدق فيبدأ بمن قدمهم الله ويؤخر من أخرهم .

وذلك التناسب القوى فى ختام كل آية من تلك الآيات حيث يحمل التذييل من المعانى ما يشيع فى كل الآية فمثلا بنو إسرائيل بعدما أخذ الله الميثاق عليهم كما سبق — ولم يلتزموا ولم يعملوا بذلك الميثاق جاءت الخاتمة لتنبأهم وتعرفهم بعلم الله بهم وبحالهم « ثم توليتم إلا قليـلا منكم وأنتم معرضون » .

وذلك الذى يحمله كبره وتطاوله على من يحسن إليه لا يحبه الله ، « إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا » وما بعد هـذا الذم والتوبيخ بهذين الوصفين من ذم .

وآية أخرى تختم بهذا الوعد الشديد للذين يأكلون أموال اليتامى ظلما « وسيصلون سعيرا » وهـذه الخاتمة تهز القلوب هزا ، وتنغص عيش هؤلاء الذين يقدمون على هـذا الصنيع المشين .

وهـذا بحث متواضع أرجو أن ينفع الله به قارئه وأرجو أن يسهم فى وضع لبنة فى بناء المجتمع المسلم لحسن ما فيـه من أسرار وفوائد وأرجو من العليم الخبير حسن الثواب ودوام التوفيق والصفح والغفران عن أى خلل أو تقصير « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحـكيم » .

المراجـــع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ـ الهيئة العامة للكتاب مصر .

٣ ـ إرشاد الراغبين فى الكشف عن آى القرآن المبين محـمد منير الدمشقى طبعة عالم الكتب بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣م .

٤ ـ تفسير أبى السعود دار إحياء التراث العربى بيروت ١٩٩٠م .

٥ ـ التحرير والتنوير ، للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية للنشر .

٦ ـ روح المعانى للألوسى ط دار الفكر العربى ١٩٨٧م .

٧ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى ٧٣٨هـ ـ مطبعة مصطفى الحلبى مصر طبعة أولى ١٩٧٠م .

٨ ـ الكشاف للزمخشرى دار الفكر بيروت .

٩ ـ المعجم الموضوعى لآيات القرآن الكريم صبحى عبـد الرؤوف الناشر دار الفضيلة مصر .

١٠ ـ مجمع البيان للطبرسى دار المعرفة بيروت .

١١ ـ مفاتيح الغيب ، فخر الدين الرازى دار الغد العربى ١٩٩١م .

تم بحمـد الله وتوفيقـه ؟